طيارة اخرى سماها فكتور الاول تطير والريح ساكنة لا تحرّك اوراق الشجر واذا هبّت بسرعة ١٥ ميلاً في الساعة وقفت الطيارة في الجو فوق خيطها وشدّت بقوة فائقة . وطول هذه الطيارة ثلاثة امتار وعرضها ثلاثة امتار وعلوها متر وثقلها ١٢ ليبرة فالقدم المربعة من سطحها تحمل ٣٥ غراماً من ثقلها . وفي البط البري القدم المربعة تحمل ٩٠٠ غرام من الثقل فيبقى في الطيارة قوة تكفي لحمل اضعاف ثقلها . وما من طيارة صنعها والثقل فيها يزيد على خمسين غراماً لكل قدم مربعة من سطحها اما الطيارات التي صنعها غيره فالثقل فيها يزيد على الف غرام لكل قدم مربعة من السطح

فقد صنع آلة للطيران تفوق الطيور خفة وقوة وتكاد تماثل البعوض في خفتها بالنسبة الى اتساع سطحها وبقي عليه ان يضع فيها آلة متحركة ويجعلها تحرك لولباً او رفّاصاً هوائياً ويجلس انسان في فسحة كبيرة في قلب الطيارة ويدير الآلة لتحرك الرفّاص كما يشاء فيسير قرب سطح الارض او يعلو في الجو ويسير فيه الى اية جهة اراد بسرعة عشرة اميال او خمسة عشر ميلاً في الساعة . فاذا تمّ له ذلك فيكون قد ماثل الطيور في طيرانها وهذه غاية ما يصل اليه الانسان في الطيران

الامير بشير الشهابي

لما كنّا نكتب الفصول الرجيزة التوالية عن خرائب الشام كان يعرض لنا هذا السؤال كما كتبنا بضعة اسطر منها وهو « لماذا خربت تلك المدائن وانقرض اكثر سكّان البلاد » . ولا بد من ان يكون هذا السؤال عينهُ خطر لكثيرين من القراء فاجابوا عنهُ حسب تفلسُفهم من التاريخ وتمرنهم على الاستقراء والاستنتاج . ولقد وددنا مراراً ان ننشر تاريخ تلك البلاد لا كما هو وارد في الاسفار التي كتبها ابناؤها بل كما ينظر اليه مَن اطّلع على تاريخ الامم وعرف الاسباب التي تؤول الى تقدّمهم او تأخرهم وكنا نحجم عن ذلك وتهيبهُ لما يقتضيهِ من المشقة ولان مجال البحث فيهِ واسع جدًّا لا يوفى حقهُ الاّ في مجلّد او مجلدات . لكن وقع في يدنا في هذه الاثناء كتاب قديم لكاتب انكليزي دقيق النظر اقام في بلاد الشام سنين كثيرة ومات فيها وهو الكولونل تشرتشل من سلالة دوق ملبرو الشهير فرأينا في هذا الكتاب ما يراهُ الباحث الجيولوجي في طبقات الارض من المتحجرات فيستدلُّ بها على اشكال الحيوانات الباقية منها وطبائعها . فان في ترجمة كل رجل من الرجال الذين ذكرهم فيهِ كالجزار والامير بشير والامير

حيدر وظاهر العمر ما يدلُّ دلالة واضحة على الاسباب التي خرَّبت بلاد الشام واورثتها الدمار المستمر لانهُ ذكر حوادث حياتهم كما هي ولم يسدل عليها حجاب الخوف من الحكام كما يفعل مؤرخونا فرأينا ان نحذو حذوهُ في كتابة الفصول التالية مقتطفين حوادثها من التواريخ المتداولة كتاريخ الاعيان في جبل لبنان وتاريخ الامير حيدر ليرى ابناء الشام الاسباب التي قوَّضت اركان بلادهم و يطاليوا بمنع ما لا يزال جاريًا على منوالها فنقول

نشأ الامير بشير الشهابي والوالي على عكاء والخطة التي منها جبل لبنان رجل يلقَّب بالجزار لشدَّة فتكهِ وشراسة اخلاقهِ . وكان على جبل لبنان رجل من آل شهاب اسمهُ الامير يوسف خلا لهُ الجو بعد ان فتك بمناوئيهِ في الامارة وسمل عيني اخيهِ فخاف الجزار ان لا يبقى مناظر لهذا الامير ولا يبقي لهُ هو سبيل الى قسمة اهالي البلاد حزبين وابتزاز الاموال منها ثم بلغهُ ان فيها شابًّا مقدامًا من آل شهاب اسمهُ الامير بشير يصلح ان يكون رئيس حزب فيها فسرَّهُ الخبر وجعل يكاتبهُ و يرغبهُ في الولاية . وكان الامير يوسف قد اناط بالامير بشير جمع الاموال الاميرية سرارًا فاظهر من الشدَّة والقسوة ما حببهُ الى الجزار . وتوالت الخطوب على الامير يوسف ومات بعض الرجال الذين كان يعتمد عليهم فوهن عزمهُ واراد التنازل عن الولاية فجمع مناصب البلاد وطلب منهم ان يختاروا لهم واليًا غيرهُ على رواية صاحب تاريخ الاعيان فاختاروا الامير بشيرًا وكان عمرهُ احدى وعشرين سنة وكان الجزار يميل اليه كل الميل ويرغب في جعلهِ واليًا على لبنان ولهُ معهُ رسائل ودسائس فاحفرهُ الامير يوسف واشار عليهِ ان ينزل الى عكاء ويتوشح بخلعة الولاية على البلاد . وقد ايَّد تشرتشل هذه الرواية من حيث حث الامير يوسف للامير بشير على الذهاب الى عكاء لكنهُ ارتاب في اخلاص الامير يوسف كأنهُ يحسب انهُ بعث بالامير بشير الى عكاء وهو يظن انهُ لا يعود منها

ورحَّب الجزار بالامير بشير وقلَّدهُ الولاية على جبل لبنان وخلع عليهِ واصحبهُ بالف عسكري من المغاربة والارنؤوط وحثهُ على طرد الامير يوسف من البلاد لكي يستحكم الخلاف بين الاميرين ويناوئ كلٌّ منهما الآخر و يتزايدا في ما يرشوانهِ بهِ على جاري العادة . فداس الامير بشير ما في طبعهِ من الشهامة وكرم الاخلاق وعاد بهذا الجيش الى دير القمر فالتفَّ حولهُ زعماء المشايخ الجنبلاطية والعمادية والنكدية وجعل يطارد الامير يوسف وانصارهُ من مكان الى آخر

وبلغ الجزار ان الاميرين يتظاهران بالعداء و يبطنان الصداقة فكتب الى الامير بشير في ذلك فجاءهُ الجواب ومعهُ رؤوس القتلى من رجال الامير يوسف محمولة على بغلين . فلما وصلت

الرؤوس اليهِ كذَّب ما قالتهُ الوشاة وعلم انهُ اصاب في اختيارهِ رجلاً لا يصادق خصمهُ ولا ينشر في البلاد سلمًا يقطع عنهُ در خيراتها يدلك على ذلك ان الامير يوسف كتب الى الجزار يستعطفهُ فاستدعاهُ الجزار الى عكاء حالاً ولما وصلها امَّنهُ واكرمهُ وعين لهُ العلائف فاقام عندهُ خمسة اشهر ولسان حالهِ يقول للامير بشير اما ان ترضاني باكثر مما ترضاني خصمك او اخلعك من الولاية واعطيها لهُ . ثم تمَّ الاتفاق بين الجزار والامير يوسف على ستة آلاف جنيه يدفعها الامير يوسف سنويًا وخلع الجزار عليهِ خلعة الولاية فكتب الى وجوه البلاد يخبرهم بذلك ففرحوا لان الامير بشيرًا كان قد ارهقهم بمطالبهِ وحسبوا ان الامير يوسف يكون ارأف منهُ ولم يدروا ان الاثنين فرسا رهان يسوقهما والي عكاء الى تخريب البلاد وانتزاز ما فيها من الاموال . فاضطرَّ الامير بشير ان يهرب من وجه الامير يوسف فسار الى بلدة اسمها نيحا ونزل على صديقهِ الشيخ قاسم جانبلاط ثم سار الى عكاء وعرض على الجزار ان يدفع الزيادة التي قبل بها الامير يوسف ودفع اليهِ الفي جنيه نقدًا . فابرقت اسرَّة الجزار وعلم ان حيلتهُ نجحت فعزل الامير يوسف للحال وامر باعتقالهِ وقلَّد الولاية الامير بشير فعاد الى دير القمر والتقى بالقادمين لاستقبال الامير يوسف فامر بالقبض عليهم واخذ اسلحتهم ولما وصل الى دير القمر قبض على من وجدهُ من حزب الامير يوسف وسجنهم وارسل المحصِّلين لتحصيل الاموال التي تعهَّد بها للجزار واخذ يصادر انصار خصمهِ فثارت البلاد عليهِ فقابلها بحد الحسام وبعساكر الارنؤوط الذين جاء بهم من عكاء

وكان الجزار قد خرج للحج على جاري عادتهِ يقيم الفريضة من جهة ويخرب البلاد ويقتل العباد من اخرى شأن كثيرين من الذين يتخذون فرائض الدين وسائل للفتك والكسب . فكتب اليهِ الامير بشير انهُ لا يستطيع ان يحكم البلاد ويجمع الاموال التي تعهد لهُ بها ما دام الامير يوسف يثير اهاليها عليهِ بد ساعة . وبلغهُ الكتاب وهو في طريق الحج في المزاريب فكتب الى نائبهِ في عكاء ان يشنق الامير يوسف . ثم ندم على ما فرط منهُ لان بقاء الامير يوسف لازم لغرضهِ وهو بقاء خصمين يتناظران في تخريب البلاد وتفريق كلمتها فكتب الى نائبهِ بالغاء الامر الاول لكن نفذ السهم وشُنق الامير وعمرهُ اربعون سنة والجزار صنيعة الامير يوسف كما سنبينهُ في تاريخ الجزار ومع ذلك لم يستكف من قتلهِ لما رأى لهُ مصلحة في ذلك

واستعرت نار الحرب بين اصالي الجبل ورجال الامير بشير ومعهم جنود الجزار وظلت اكثر من سنتين الى ان كتب وجهاء البلاد الى الجزار ان يولي عليهم الامير حيدر والامير فعدان الشهابيين وانهم يدفعون اليهِ الاموال الاميرية حسب عادتها واربعة آلاف كيس منجمة على ست سنوات . فاجابهم انهُ انفق اموالاً طائلة على الجنود بسبب عصيان الاهالي

فان دفعها اليهِ الاميران ارسل اليهما خلعة الولاية . فرضي الاميران بذلك وارسلا اليهِ نفقات الجنود وحكّا باربعة آلاف كيس واربعة من جياد الخيل فارسل اليهما خلعة الولاية وامر بحجز الامير بشير في صيداء وسار الى الحج . فجعل الاميران همهما الاول جمع الاموال وزادا عليها نصف مال وغرّشين في جزية كل انسان فارهقا اهل البلاد حتى كادوا يجيرون بالعصيان . وكان جرجس باز الديراني مدبّرًا لاولاد الامير يوسف فكتب الى الجزار يلتمس منهُ الولاية لاولاد سيدهِ وارسل اليهِ مئة الف غرش وتعهّد بدفع الاموال الاميرية كلها فبعث اليهم بخلعة الولاية

وزاد الاضطراب في البلاد حتى اضطرّ اهلها ان يكتبوا الى الجزار يطلبون منهُ اعادة الولاية الى الامير بشير فاجابهم الى طلبهم وجهّز الامير بشير بالجنود وبعث بهِ الى الجبل فنشبت الحرب بينهُ وبين جنود الامراء وانصارهم فدارت الدائرة عليهم وكاد النصر يعقد لهُ في البلاد كلها وتتمهد لهُ الامور وهذا ما لا يرضاهُ الجزار فكتب الى اولاد الامير يوسف ان يحضروا ليوليهم البلاد كما كانوا فحضر الامير حسين والامير سعد الدين الى ساحل بيروت فارسل خلع الولاية اليهما وسار الامير حسين الى دير القمر ومعهُ مدبرهُ جرجس باز وسار الامير سعد الدين الى جبيل ومعهُ مدبرهُ فرنسيس باز واعتقل الجزارُ الامير بشيرًا واخاهُ الامير حسنًا وسجنهما وسار الى الحج ولما عاد منهُ امر باطلاقهما لانهما تعهدا لهُ بثمانية آلاف جنيه وخلع على الامير بشير خلعة الولاية واصحبهُ بعسكر وكان ذلك سنة ١٧٩٥ فعاد الى لبنان وطارد الامراء اولاد الامير يوسف وجمع الاموال وبعث بها الى الجزار

من يقرأ تاريخ تلك الايام لا يجد فيها الاَّ حربًا دائمة بين امالي لبنان يوقد نارها والي دمشق او والي عكاء الاَّ ان الكر والفر والرمي والضرب في ميادين القتال ومن وراء المتاريس والادغال لم تكن كل ما لجأ اليهِ اهالي البلاد وزعماؤهم بل كثيرًا ما كانوا يلجأون الى الخديعة والغدر كما حدث في نكبة النكدية اولاد الشيخ كليب النكدي الذين قتلهم الامير بشير غدرًا . وقد وصف تشرتشل بك نكبتهم وصفًا بليغًا قال فيهِ

استدعى الامير بشير امراء البلاد ومشايخها وزعماءها الى اجتماع عام في بيت الدين في الثالث والعشرين من شهر فبراير سنة ١٧٩٥ (١) وفي اليوم المعين اقبلوا يتهادون على ظهور جيادهم وكلٌّ منهم محفوف بحاشيتهِ ورجال بطانتهِ وبينهم عشرة من المشايخ النكدية المشهود

(١) جعلها تاريخ الاعيان سنة ١٧٩٧ وتاريخ الامير حيدر سنة ١٧٩٦ والصواب سنة ١٧٩٧ اذا كان التاريخ الهجري الذي ذكرهُ الامير حيدر صحيحًا

لهم بالبسالة والحنكة حتى اذا انتظم عقد الجمع قيل لهم ان الامير دخل مجلسهُ وهو يدعو زعماء العشائر اليهِ فتقاطروا الواحد بعد الآخر حسب مقاماتهم وكانوا ينزعون اسلحتهم قبل دخولهم والامير يرحّب بهم على جاري عادتهِ . وقدّمت لهم القهوة والمرطبات والشبقات ولكن كان الخوف والوجوم سائدين على الجميع كانهم يتوقعون امرًا ذا بال. ثم نهض الامير وخرج من المجلس وتبعهُ الشيخ بشير جانبلاط والمشايخ بنو عماد واراد النكدية ان يتبعوهم فأُقفل الباب في وجوههم وأُخرجوا وقتلوا واحدًا واحدًا (٢). فهابت البلاد الامير وخلدت الى السكينة وزاد سكونها لان الجزار شُغل عنها بمجيء الفرنسوية الى مصر سنة ١٧٩٨ وبمجيء البوارج الانكليزية الى عكاء لحمايتها منهُ سنة ١٧٩٩ ثم بمجيء بونابرت اليها بجيوشهِ فامسى الجزار محتاجًا الى مساعدة الامير ورجال لبنان وكتب اليهِ يستنجدهُ فاعتذر بعدم طاعة اهل البلاد لهُ اذ بلغهم تولية اولاد الامير يوسف بدلاً منهُ

وكتب السلطان سليم منشورًا عامًا اتهم بهِ الفرنسويين بالكفر والفجور والطغيان واستنهض همة رعاياهُ لمحاربتهم . وقد اثبت تاريخ الامير حيدر هذا المنشور برمتهِ . وكتب السلطان ايضًا الى نائب طرابلس الشام منشورًا يقول فيهِ

"ليكن معلومًا ان الفرنسويين صمموا على اخذ مصر القاهرة وما يليها من البلاد والآن قد اختلسوا يافا وغزة والرملة وملحقاتها وعلى زعمهم الفاسد يريدون تدمير امة الاسلام وهدم كعبتها وجوامعها فاقتضت صداقة المحب الصادق والخل الموافق اجل الاحباب وكريم الانساب سعادة اخينا المحترم سلطان الانكليز الفخم المتحد معنا باخلاص الطوية على تدمير الامة الفرنسوية انهُ لغزير مكارمهِ ووافر مراحمهِ قد سيّر مع عمارتنا الهمايونية عمارة انكليزية واقام عليها ساري عسكر افتخار الامراء الكرام في الطائفة المسيحية وعظيم الكبراء الفخام في الملة العيسوية جناب محبنا المحترم السنيور بلمام سدقي سمث الاكرم فوجدناهُ من لدنا بالتفويض الخاقاني والتوقيع السلطاني مشيرًا مطلقًا في نظام تلك الديار كما يراهُ بعين الاعتبار فليعلم الخاص والعام حسن صداقتهِ مع الاسلام والاعانة لنا على الدوام . اعلموا ذلك واعتمدوهُ غاية الاعتماد والسلام

وظن اهالي لبنان ان الفرنسويين جاءوا لينقذوهم من ظلم الجزار خصوصًا وظلم الولاة العثمانيين عمومًا ففرحوا بقدومهم وباعوهم الطعام والخمر وكذلك فرح المتاولة حكام بلاد بشارة وبلاد صنف الاّ ان الدروز سكان لبنان انقسموا الى قسمين قسم ظاهر الفرنسويين وقسم عاداهم

(٢) ويظهر من تفصيل تاريخ الاعيان وتاريخ الامير حيدر ان الذين قتلوا من آل حماد حينئذٍ خمسة لا عشرة ثم قتل خمسة آخرون بعد ايام

فزاد الشقاق بينهم. وكتب بونابرت الى الامير بشير يطلب منهُ نجدةً فلم يجبهُ بشيء فكتب اليهِ ثانيةً يعاتبهُ لانهُ لم يردَّ جواب كتابهِ الاول ووقع هذا الكتاب الثاني في يد متسلم صيداء فارسلهُ الى الجزار فعلم انهُ اساء الظن بالامير

ووصل السر سدني سمث الى عكَّاء بالبوارج الانكليزية في ١٥ مارس سنة ١٧٩٩ وابلى رجالهُ بلاءً حسناً فرسخ في عقول الاهالي والحكام ان الانكليز ابطال حرب واهل نجدة فيحسن الالتجاء اليهم والاعتضاد بهم. واتفق ان رجلاً من اهالي لبنان كان آخذاً خمراً الى الجنود الفرنسوية فقبض عليهِ التلاحقة من مشايخ لبنان قرب نهر الدامور وسلموهُ لمتسلم بيروت فانزلهُ في سفينة وارسلهُ الى الجزار فرأى سفينة انكليزية قادمة الى بيروت فوقف يستغيث بمن فيها وكان السر سدني سمث في تلك السفينة فأمر باطلاقهِ وسألهُ عن شأنهِ فقال لهُ انهُ من جبل لبنان فسألهُ عن حاكم الجبل فقال لهُ انهُ الامير بشير ووصف لهُ مكارم اخلاقهِ. فكتب السر سدني سمث كتاب مودة الى الامير وارسلهُ مع هذا الرجل وطلب منهُ ان يرسل اليهِ رجلاً يعتمد عليهِ ليوقفهُ على ما في نفسهِ. فسرَّ الامير بهذا الكتاب وارسل اليهِ رجلاً من اهالي الشوف اسمهُ حسن ورد ومعهُ هدية فاخرة وكتاب يعرب فيهِ عن اخلاصهِ وثقتهِ بالامَّة الانكليزية وطلب منهُ ان يحميهُ من جور الجزار. قال قشرتشل ان السر سدني سمث طلب حليفاً قوياً فوجدهُ يستغيث بهِ لينقذهُ من جور والٍ ظالم لكن ذلك لم يحط من منزلة الامير في عينيهِ لانهُ علم ان مقامهُ السياسي كتابع للجزار اوقعهُ في هذا الضعف فاكرم رسولهُ غاية الاكرام ورعدهُ بان يكون واسطة بينهُ وبين الجزار ولا يدع الجزار يتعرض لهُ بسوء وارسل اليهِ هدية مع الرسول وكان ابن اختهِ قد جُرح في حصار عكاء فارسلهُ معهُ ليستشفي بهواء لبنان فلقي من العناية والتجلَّة والاكرام ما اقنع السر سدني سمث بصدق ولاء الامير فصار من اقوى انصارهِ

وقال صاحب تاريخ الاعيان وحضر القبطان سمث (السر سدني سمث) الى بيروت فتوجه اليهِ ابن اختهِ وحدَّثهُ بما صنعهُ الامير معهُ من الجميل والكرامة. ثم ان الامير كتب اليهِ يدعوهُ الى دارهِ فاجابهُ ان يوافيهُ الى الطريق فحضر الامير الى عين عنوب وارسل اليهِ بعضاً من الامراء والمشايخ لملاقاتهِ واصحبهم بخيل لركوبهِ وركوب اصحابهِ فجاء الى عين عنوب بمئتي جندي من جماعتهِ والتقاهُ الامير باطلاق البارود واحتفل بهِ احتفالاً عظيماً وقدَّم لهُ هدايا نفيسة فهاداهُ بانفس منها وطاب نفساً وبقي عندهُ ثلاثة ايام ثم ودَّعهُ وسافر الى عكاء وكلم الجزار في امرهِ فلم يجبهُ الى شيء فتركهُ مغتاظاً وسافر الى الاسكندرية

وكتب منها الى الصدر الاعظم والتمس منهُ ابقاء الامير بشير والياً على لبنان وردع الجزار عن اذاهُ . الاَّ ان الجزار عاد الى مصادرة الامير وعزم على خلعهِ وتولية اولاد الامير يوسف . وفي اثناء ذلك قدم يوسف باشا ضيا الصدر الاعظم بالجيوش العثمانية الى حلب فكتب اليهِ الامير بشير وارسل اليهِ خيلاً جياداً مع رجلين من اعوانهِ قدماها لهُ وطلبا منهُ صفو خاطرهِ على الامير وردع الجزار عن المظالم في جبل لبنان . ولما وصل الوزير الى حماه بعث الامير اليهِ هدية اخرى ولما بلغ دمشق بعث اليهِ هدية ثالثة فانعم عليهِ بولاية جبل لبنان ووادي التيم وبلاد بعلبك وبلاد البقاع وبلاد المتاولة واعدَّ اياهُ بانهُ يبقى والياً عليها يرسل اموالها الى خزينة الدولة رأساً كما كانت الحال في عهد الامراء المعنيين ولا يكون لولاة سورية سلطة عليهِ . لكن هذه المواعيد كانت عرقوبية ولعلَّ الباب العالي اوجس خيفة من كتابة السرسدني سمث عن الامير بشير فعضد الجزار على مقاومتهِ فعاد الى دس الدسائس في الجبل وعادت نار الحروب الاهلية الى الاستعار . وبعد معارك يطول شرحها تمكَّن الجزار من ايصال اولاد الامير يوسف الى دير القمر مع ستة آلاف جندي من الجنود العثمانية وذلك في اواخر سنة ١٧٩٩ فاضطر الامير بشير ان يهرب من وجههم باعوانهِ ويلجا الى كسروان وبلغ السرسدني سمث ذلك فكتب اليهِ كتاباً عربياً اثبتهُ الامير حيدر في تاريخهِ وهذه صورتهُ

من سميث ساري عسكر سلطان بلاد الانكليز ونائب حضرة السلطان سليم الى الاخ الحبيب الامير بشير الكلي الشرف والاحترام

اما بعد فانني لما وصلت الى بيروت سألت عن احوالك يا اخي وصديقي المحبوب فبلغني ما توقع لك من احمد باشا الجزار فانهُ قد ولَّى مكانك اولاد الامير يوسف وطردك من الولاية التي انعمت بها عليك الدولة العثمانية عن نصرها فحالاً صرت اتوجه الى غزة لمواجهة اخينا الصدر الاعظم وقائم مقام الدولة العلية . وان شاء الله عن قريب تصل مني الاخبار التي تسرك . ولا تظن يا اخي الحبيب ان انقطاعي عنك لسبب غير كثرة الحروب والاتعاب التي حصلت لي في ابي قير والاسكندرية وذلك لعدم اسعاف الجزار باشا اياي لانهُ تعهد انهُ يوجِّه اليَّ الاسعاف بالمراكب والذخائر وآلات الحرب ونكث وعدهُ وعهدهُ . والآن قد صار عدوًّا لي وللدولة العلية لان العهد بيننا ان عدو الدولة عدو الدولتين وصديق الدولة صديق الدولتين . وانت يا اخي كن براحة بال ان شاء الله قريباً تنال كل ما ترغب فيهِ . وقد تركت لك مركباً في بيروت لاجل كل ما يلزمك من الذخائر وغيرها . وان شاء الله لا ابطئ عنك في الاخبار . وانا اعلم ان بعض الوشاة في دولتك يوصلون صورة كتابتي هذه الى جزار باشا . ولكن فليعلم

انهُ سيحل بهِ الندم وتنزل عليهِ النقم وقد حررت لك هذه الاسطر من ظهر الطامور في ٥ كانون الاول (ديسمبر) ولا بد ان تخبرني دائمًا عنك والسلام

وحضر امر من عبدالله باشا العظم والي دمشق بهذه الصورة "صدر المرسوم المطاع الواجب القبول والاتباع الى امراء ومشايخ وشيوخ عقل وعقال ورعايا جبل الشوف بوجه العموم كي يعلموا . انهُ قد طرق مسامعنا ما ارتكبتموهُ من العصاوة في قبولكم اولاد الامير يوسف ولاةً عليكم وبلغنا ان البعض منكم قد اشتركوا معهم في القيام بهذه المهمة مع انكم تعلمون ان جناب ولدنا الامير بشير المحترم معين من لدن الدولة العلية اعز الله انصارها ورفع شوكة اقتدارها . وان كل من خرج من تحت اوامرهِ يكون قد وقع تحت غضب حضرة مولانا السلطان نصرهُ العزيز الرحمن . ولاجل ذلك قد اصدرنا اليكم مرسومنا هذا ففي حال وقوفكم عليهِ يجب ان تتركوا ما عندكم من العصيان . وتذكروا ما حلَّ بقومكم في سالف الزمان . وكيف سبيت النساء وقتلت الاطفال لما عصى الدولة الامير فخر الدين ابن معن في ايام الكجك احمد . وسوف ترد اليكم العساكر كالبحار الزواخر ان لم ترجعوا الى جناب ولدنا المشار اليهِ طائعين . وتكونوا لاوامرهِ سامعين . واعلموا انهُ هو المؤيد عليكم وانهُ قد صار من رجال الدولة العلية . ويجب على العاقلين منكم ان يفتكروا في عواقب الامور ولا تكونوا كمثل قوم غدروا باتفسهم . وان لم تفعلوا ما امرتكم بهِ تندموا حيث لا ينفعكم الندم وتكون خطيئة النساء منكم والاطفال في اعناق الرجال فاحذروا من الخلاف . واعتمدوا مرسومنا هذا غاية الاعتماد والسلام"

قال الامير حيدر في تاريخهِ ان الامير بشيرًا لم يكترث لكتاب عبد الله باشا لعلمهِ ان اهالي البلاد لا يعبأون بهِ لخوفهم من الجزار ولان انقسامهم يعجزهم عن مقاومتهِ . ثم اتاهُ رسول من قنصل الانكليز في طرابلس بكتاب من السر سدني سمث يطلب منهُ ان يأتي الى غزة لمواجهة الصدر الاعظم ويقول لهُ انهُ ارسل اليهِ سفينة الى طرابلس ليركب بها فركب السفينة وسار الى غزة ولما وصل الاسكندرية رحَّب السر سدني سمث بهِ والتقاهُ باطلاق المدافع ورحَّب بهِ الصدر الاعظم ايضًا وقال لهُ انت اعز رجال الدولة وخصيص مولانا السلطان وقد بلغني انك صاحب حمية وحماسة وغيرة فكن طيب الخاطر . ثم دعاهُ مدبر الصدر الاعظم اليهِ واجلسهُ بجانبهِ واقسم لهُ ان الصدر الاعظم قد اتخذهُ بمنزلة ولد لهُ

وعاد الامير بشير من الاسكندرية ومرَّ على يافا وبيروت ووصل الى قبرص وصوَّر الانكليز صورتهُ حينئذٍ واهدى اليهِ السر سدني سمث مالاً طائلاً لنفقاتهِ . وكان الصدر الاعظم قد كتب الى والي قبرص ليكرمهُ غاية الاكرام فبقي فيها نصف سنة وعاد بهِ السر سدني

سمت الى الاسكندرية ومنها الى طرابلس فاقام في بلاد عكار الى ان اشتدّ غيظ اهالي الجبل من ابني الامير يوسف لشدّة ما ارهقاهم بهِ ولجأوا الى الثورة وامتنعوا عن دفع الاموال الاميرية . ورأى الامير بشير ان كل ما نالهُ من الصدر الاعظم والاميرال الانكليزي لا يجديهِ نفعاً ما لم يسترضِ الجزار بالمال فعاد الى استرضائهِ لكن الجزار لم يرضَ الاَّ بعد حروب كثيرة كادت تقضي على ما بقي في الجبل من الرمق كأن غرضهُ الاول بعد ابتزاز اموال العباد تقليل عددهم حتى لا ينصروا امة اجنبية . ودرى اهالي الجبل بذلك فاتفقوا بعد خراب البصرة على ان يكون الامير بشير والياً على لبنان كلهِ ولا يكون الاميرين ابني الامير يوسف الاَّ بلاد جبيل وتمّ الصلح بينهم على هذه الصورة وبلغ الجزار ذلك فتمزّق غيظاً وعاد الى دس الدسائس في البلاد وبعث بالجنود لنصرة ولديهِ الامير يوسف ومدبرهما جرجس باز فاستعرت نار الحرب واحتدم لظاها اياماً كثيرة الى ان رأى جرجس باز "انهُ اذا ملك البلاد بسيف الدولة لا يقدر على تقدمة الذخائر والنفقات والدولة لا تقنع منهُ بالقليل ولا بالكثير وان باص البلاد مثل العادة رحل الناس منها وتولاَّها الدمار" فراسل الامير بشيراً في العود الى الصلح وخادع الجزار حتى استرجع جنودهُ . واجتمع الامير بشير واعوانهُ بجرجس باز واعوانهِ في عينطاب وتصالحوا وتصافوا وساروا الى دير القمر وبقي الامير هناك وذهب جرجس باز الى جبيل لان شروط الصلح تقضي بان يكون الامير حسين بن الامير يوسف والياً على بلاد جبيل وجرجس باز مديراً لهُ . وعلم الجزار بهذا الاتفاق فخاف عاقبتهُ لانهُ لا يستطيع ان يسود على لبنان الاَّ بالشقاق فجعل ينتظر الفرص لذلك فسنحت لهُ حالاً لان بعض الشهابيين رغبوا في الولاية وانحاز اليهم العادية وكتبوا الى الجزار يلتمسون الولاية للامير عباس اسعد فاجابهم الى ذلك . وبلغ الشيخ بشير جانبلاط ما فعلوهُ فاتفق مع الامير قعدان وارسلا الى الجزار يطلبان الولاية للامير سليمان فاجابهم الى ذلك ايضاً وكأن لسان حالهِ يقول اذا كثرت الاحزاب كثر الراشون ولمثل شر اجتماع الكلمة

وكانت بلاد الشام كثيرة الخير في ذلك الوقت لانها كانت طريق التجارة من اوربا الى الهند ومن الهند الى اوربا فصبرت على تلك الرزايا السود ولولا ذلك ما استطاعت البقاء بضعة سنوات ونار الحروب الاهلية دائمة الاستعار

وذهب الامير عباس الى عكاء ومعهُ العادية فرحّب الجزار بهِ والبسهُ خلعة الولاية وانفذ معهُ عسكراً الى صيداء واعطاهُ كتاباً الى سليمان باشا واليها ليكون قائداً للعسكر وانفذ الشيخ فارس العماد بالفرسان الى البقاع ونشبت نار الحرب بين جنود الامير بشير وجنود الجزار

فدارت الدائرة على جنود الجزار فعاد الى دس الدسائس في الجبل وايقاع الفتن فيهِ فنجح بعض الشيء ثم وافتهُ سيتهُ في اوائل سنة ١٨٠٤ واستراحت البلاد منهُ ولكنها لم تستريح من غيرهِ من الولاة ولو لم يبلغ احد مبلغهُ في الظلم والبطر . وخلف الجزار رجل اسمهُ اسمعيل باشا اراد الاستقلال وخلع نير الدولة فكتبت الى الامير بشير تثبت ولايتهُ على لبنان وما ولاهُ من البلاد وقالت انهُ تحقق لها صدق خدمتهِ وحسن استقامتهِ وعلو همتهِ وامرتهُ ان يساعد ابرهيم باشا والي دمشق على طرد اسمعيل باشا من عكاء . وكتب اليهِ يوسف باشا ضيا الصدر الاعظم بمثل ذلك فجمع ستة آلاف مقاتل عاون بها ابرهيم باشا فدارت الدائرة على اسمعيل باشا فقتل وولي سليمان باشا بدلاً منهُ فكتب الى الامير انهُ وجد صكوكاً كثيرة عليهِ وعلى اقاربهِ باموال طائلة فاجابهُ الامير مقرًّا بصحة الصكوك لكنهُ قال ان الجزار كان يُدفَع اليهِ المال فلا يعطي بهِ بياناً بل كان يقول اني امرت بتقييدهِ الى نهاية الحساب . وبعد مراجعات شتى واقامة البينات الكثيرة تمَّ الاتفاق على مبلغ يدفعهُ الامير مخالصة فاستدان حرير اقاربهِ وباعهُ واوفى بهِ ما تمَّ الاتفاق عليهِ

ومرَّت ثلاث سنوات وامور الجبل بين بين لا صفاء ولا كدر لكن الضغائن بقيت كامنة والخصوم يتحينون الفرص ورأى الامير بشير انهُ لا بدَّ من وقوع الشقاق بينهُ وبين اولاد الامير يوسف ما دام جرجس باز في قيد الحياة لان الرجل كبير النفس وله حزب كبير في البلاد فعزم على الايقاع بهِ ولو غدرًا

قال الامير حيدر في تاريخهِ ما ملخصهُ

ان جرجس باز قام بخدمة الامراء اولاد الامير يوسف الشهابي حتى اقامهم على ولاية البلاد ثم شاطرهم الامير بشير الحكم فاقتصروا على ولاية بلاد جبيل وما يليها وكانوا قاصرين في السن والرأي وكان جرجس باز مدبرًا لهم خادمًا في القول ومخدومًا في العمل لانهم كانوا يأتمرون بامرهِ في كل افعالهم لا يصدرون امرًا الاَّ باذنهِ وكان لهُ السلطة المطلقة عليهم حتى في ملابسهم وخيلهم وسلاحهم ونفقاتهم ولم يكن في يدهم امر ولا نهي ولا خاتم يختمون بهِ ما يكتب باسمائهم من رقاع الديوان بل كانت اختامهم بيدهِ يكتب ويختم كما يشاء بغير اذن منهم فكان لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . وكان هذا الرجل حاذقًا كريم النفس واليد سلس الاخلاق طيب الحديث يأخذ لتاؤهُ بقلوب الناس فيميلون اليهِ . وكان مبذلاً يستهلك الاموال غير محتفل بها في الشدة والرخاء وكان للناس طمع بكرمهِ حتى ربما أُهدي اليهِ فرس او سيف او ثوب فيتناولهُ بعض حاشيتهِ قبل ان يراهُ ثم يخبرهُ بهِ فيقول لهُ بارك الله لك فيهِ . وكان

طروبًا يحب الملاهي والغناء فلا يخلو محلهُ من منشد الاَّ نادرًا وفيهِ تيه واقدام فلا يُبالي بامر ولا يراعي جانب مَن يراعي جانبهُ . وكان اخوهُ عبد الاحد باز يقرب منهُ في هذه الصفات الاَّ انهُ لم يكن يجاريهِ في النباهة وكان مسرفًا كثير البذخ في الملابس يستبدل في اليوم الواحد خمس حلل كاملة من العمامة فما يليها . وطابت لهما الايام زمانًا طويلاً وعظمت منزلتهما ومال اليهما كثيرون من عمد البلاد فاستطالا ولم يكن للامير بشير حرمة عندهما فكان يضمر لهما السوء

واتفق في تلك الايام ان المشايخ بني ملحوق اغاظوا الامير فارسل اليهم رسلاً يطلب منهم اموالاً طائلة وكذلك اغتاظ من المشايخ بني عبد الملك فارسل عليهم رجالاً يضيقون عليهم تأديبًا لهم وكان جرجس باز يحرضهُ على الانتقام منهم فرحلوا من منازلهم ونزلوا على اخيهِ الامير حسن في غزير وسألوهُ ان يتوسط في امرهم فأتى دير القمر ليتوسط بينهم وجرى حديث جرجس باز بين الامير واخيهِ لان جرجس باز كان يغريهِ بالايقاع بهم واراه كتبًا كتبوها الى والي عكاء وشايةً بهِ وكان والي عكاء قد اطلعهُ عليها او سلمهُ اياها فتم الاتفاق بين الاميرين على الايقاع بالاخوين في يوم واحد وهو الخامس عشر من شهر ايار (مايو) سنة ١٨٠٧ وكان جرجس باز في دير القمر واخوهُ عبد الاحد في جبيل وتحوَّط الاميران لذلك تحوطًا يدلُّ على مقدرة الاخوين وكبر حزبهما في البلاد وما لها فيها من الجاه والكلمة النافذة فتظاهر الامير بشير بالغيظ من العادية والتلاحقة واوعز اليهم ان يلجأوا الى جرجس باز ليتوسط امرهم فلجأوا اليهِ فاجابهم حياء وكرم اخلاق وخاطب الامير في ذلك فاجابهُ ان يكتبوا صكًّا على انفسهم بالمال المطلوب منهم الى مضي شهر فكتبوا الصك وكان الامير قد اخبرهم بما اطلعهُ عليهِ جرجس باز من امر المكاتيب التي ارسلوها الى عكاء واتفق معهم على ان يوقع بهِ ويعفيهم من الاموال التي طلبها منهم فخالفوهُ على ذلك وحسب جرجس باز انهُ فاز في استرضائهِ واصطنع اولئك المشايخ وذاع الامر في البلاد . ثم قام المشايخ الى جبيل مدعين انهم ذاهبون اليها ليلتمسوا من الامراء اولاد الامير يوسف ان يتوسطوا لهم في ترك ما تعهَّدوا بهِ للامير في الصك وبلغ جرجس باز ذهابهم فارسل كتابًا الى اخيهِ عبد الاحد الاَّ يقبلهم . ولما وصلوا الى غزير سار معهم الامير حسن الى جبيل وارسل رجالاً من خدمهم يلهون من في باب المدينة بالشراء واللعب مخبرين عن قدوم مشايخهم نزلاء على الامراء اولاد الامير يوسف لكي لا يقفل بابها في وجوههم فلما اقبلوا على المدينة حذَّر احد خدام الامراء عبد الاحد قائلاً ان هؤلاء القادمين جم غفير فيخشى ان يكونوا قاصدين شرًّا فليقفل باب المدينة في وجوههم او اخرج انت منها بمواليك فاجابهُ ان هؤلاء هم المشايخ اليزبكية وقد قدموا نزلاء علينا واراهُ

كتاب اخيهِ وظلَّ في غفلتهِ . ووصل المشايخ الى باب المدينة وهجموا برجالهم على دار عبد الاحد وهجم الامير حسن برجالهِ على القلعة وفيها الامراء اولاد الامير يوسف فلما راى عبد الاحد الهاجمين على دارهِ ايقن بالهلاك فتقلَّد سلاحهُ حالاً وجعل يطلق الرصاص على الهاجمين عليهِ فقتل رجلاً منهم وجرح آخر ولما رأى تكاثر خصومهِ عليهِ الق بنفسهِ من نافذة فادركوهُ وقتلوهُ ونهبوا دارهُ . ودخل الامير حسن القلعة وقبض على اولاد الامير يوسف

وفي الساعة التي دخل فيها الامير حسن مدينة جبيل استدعى الامير بشير جرجس باز للنظر في بعض المهام فحضر وجلس عنده ساعة . ثم خرج الامير من مجلسهِ واغلق الباب وامر اعوانهُ الدروز ان يدخلوا ويقتلوهُ فدخلوا وخنقوهُ وامر ايضاً بقتل مديرهِ واثنين من اعوانهِ لانهُ كان يخشى شرهم فهاج اهالي دير القمر وماجوا وهجموا على سراي الامير بشير فالتقاهم من فيها بالبنادق فاضطروا ان يعودوا عنها

قال الامير حيدر وتأسف الناس على جرجس باز لانهُ كان كريماً قاضياً للحاجات وكان اصحابهُ يخشون من مثل هذا الامر ويحذرونهُ وينذرونهُ ووُجد في منطقتهِ كتاب من الشيخ ظاهر عطا الله ينصحهُ فيهِ من غائلة الامير بشير وهو لا يلتفت الى ذلك حتى قضي الامر فصحَّ فيهِ قول الشاعر

واذا رأيت مقدَّراً من قادر وفررتَ منهُ فنحوهُ كان السرى
ان المقدَّر كائن لا يُتَّقى ولك الامان من الذي ما قدَّرا

وجار الامير بشير على الامراء اولاد الامير يوسف وسمل اعينهم ومنعهم من التزوج خوفاً من اعتابهم واستصفى املاكهم وعيَّن لهم من ريعها نفقةً معلومة ووضع عليهم حرَّاساً يمنعونهم من مواجهة الناس فوقعت رهبتهُ في القلوب وبسم لهُ الدهر . وتوفي اخوهُ الامير حسن سنة ١٨٠٨ وعمرهُ ثلث واربعون سنة ووصفهُ تاريخ الاعيان بانهُ "كان عاقلاً فطناً فصيحاً محبّاً للعلم والعلماء كريماً سديد الرأي شديد البأس ابيَّ النفس صعب القياد وكان ركناً لاخيهِ في كل امر" فالتمس الامير بشير ولاية بلاد جبيل لابنهِ الامير قاسم من والي طرابلس فقلدهُ اياها اما العادية فندموا على قتل جرجس باز لانهم لم ينالوا شيئاً بقتلهِ فهاجر زعماؤهم الى مصر. وقدم عبد الله بن مسعود الوهابي التميمي من الحجاز الى حوران فاستنجد سليمان باشا والي عكاء بالامير بشير فانجدهُ بخمسة عشر الف مقاتل من اهالي لبنان لكن ابن مسعود عاد من حيث اتى من غير قتال . وسنأتي لمتمة حديث الامير بشير في الجزء التالي